بين العلم والأخلاق ؟

اشتدت الحملة على العلم فى عصرنا هذا بين كثيرين من المفكرين من غربيين وشرقيين . ولعل السبب فى تلك الحملة العنيفة هو ما شاهده الناس من آثار العلم فى الحربين الأخيرتين : ذهبت ملايين النفوس ضحية فى ميادين القتال ، وفى معسكرات الاعتقال ، فى المراكز الصناعية ، وفى المدن الآمنة ، فى الجو وفى البحر ، وأخيراً بالقنابل الذرية التى تحمل إلى الناس أضمن موت فى أوسع مدى ، من غير تمييز بين المحاربين وغير المحاربين ! فكان طبيعيًّا أن يتساءل الناس عن المسئول عن تسليح الشعوب بأسلحة الفتك هذه . وكان طبيعيًّا أيضاً أن يكون أول ما يخطر ببالهم ، جواباً عن هذا التساؤل ، أن القتل والدمار على اختلاف أنواعه ، إنما تم بفضل العلم وببركة جهود العلماء .

فإذا اعترض البعض بأن الحرب أمر شاذ فى تاريخ الانسانية ، وأن زمان السلم مبرأ من ويلاتها ، نهضت الوقائع لتفنيد هذا الرأى : فهذه الآلات التى تزيدها جهود العلماء كل يوم دقة وابتداعاً لم تقدم إلى المجتمع الإنسانى حياة السعة والرفاهية والاطمئنان التى طالما وعدوه بها . ويظهر أن فى وضع السؤال نفسه سخرية مرة . فالعمل فى المصانع ، ذلك العمل الذى لا يكاد يترك للعامل وقتاً للتنفس ، إنما يعقب ، فى الآونة الحاضرة ، التشردَ والبؤس والبطالة فى أرجاء العالم ، حتى ليخطر ببال من ينظر فى حال بعض العمال فى الغرب أن الانسان أصبح ، بفضل التقدم العلمى الصناعى ، عبداً للآلة ، بدلا من أن تسخر الآلة فى خدمة الإنسان . ولم يفت حكماء الشرق والغرب أن يلاحظوا هذه الظاهرة العجيبة ؛ فهذا رابندرانات تاجور يقول : « إن الحياة المادية القائمة على العلم تحلو لبعض الناس ؛ لأن لها كل صفات الرياضة البدنية : تتظاهر بالجد ، ولكنها خلو من العمق ، وهى لا تحسب للطبيعة الانسانيه العالية حساباً . » وهذا أينشتين لايقل قسوة فى الحكم على العلم عن حكيم الهند ، إذ يقول :

« لم يستخدم العلم حتى اليوم إلا فى استعباد الناس : ففى زمن الحرب يستخدم العلم فى تسميمنا وفى تشويهنا ، وفى زمن السلم يجعل حياتنا قلقة مرهقة . كنا ننتظر أن يستعين الناس بالعلوم للانصراف إلى الأعمال العقلية ، فينالوا بذلك أكبر قسط من الحرية . ولكن بدلا من ذلك صيرتهم العلوم عبيداً للآلة . إن السواد الأعظم من العمال ينفقون نهارهم الطويل الرتيب الخالى من البهجة ، وهم فى أشد حالات التبرم والضجر ، ولا يمنعهم ذلك من الارتعاد خوفاً على أجورهم الضئيلة . »

ذلك هو الاتهام فى قوته . وخلاصته أن العلم مخالف للأخلاق ؛ لأنه يفسد فى الأرض ، ويسفك الدماء ، ويجعل الإنسان عبداً للآلة ، ويزوّد الحماقة والبغضاء بأخطر سلاح .

إننا جميعاً نكره هذه الآثام التى تقترف باسم العلم ، ونمقت آثار الحرب والموت التى تجهز فى ظل المعامل والمختبرات العلمية ، ونشعر بمضض شديد كلما فكرنا فى تلك المدنية المادية المنسوبة إلى العلم ، تلك المدنية التى تجعل غاية الإنسانية أن تظفر بالمتع المادية ، وأن توفر لها وسائل الراحة الرخيصة والترف الغليظ . ولكن هل العلم مسئول عن كل ما ينسب إليه ؟

إن الآثام التى اقترفت باسم العلم حق لا ريب فيه . ولكن العلم ليس مسئولا عنها . والذى يوقع الناس فى الخطأ بهذا الصدد هو أنهم يخلطون غالباً بين العلم ذاته وبين التطبيقات المستفادة من العلم . ولكن العلم ، لحسن الحظ ، شىء آخر غير التطبيقات العلمية .

العلم الصحيح هو البحث عن الوقائع والقوانين بحثاً بريئاً منزها عن كل غرض سوى المعرفة . ومهمة الباحث ، فى علم الطبيعة أو فى علم البيولوجيا أو فى علم الاجتماع ، مقصورة على جودة التمحيص للوقائع وإقامة القوانين منها . فمهمته مهمة عقلية محضة ، وليس له من قصد إلا تقدم الذهن الإنسانى تقدماً غير محدود . وجماع حياة العالم فى كلمة المعرفة ، والمعرفة لا أكثر ولا غير .

صحيح أن الغالب فى مجال العلم أن يكون الرجل الذى يعرف هو نفسه الذى يعمل ، وأن الذى يكتشف هو عين الذى ينتفع من الاكتشاف . ولكن الحقيقة أنه متى تم للعالم أن يركب جهازاً أو آلة من أجل غاية تتجاوز المعرفة المحضة ، فقد

خرج من مجال العلم ولو لم يخرج من المعمل ؛ لأنه إذا تغير قصده تغيرت عقليته أيضاً ، وأصبح إنسانا له أهواؤه وآراؤه ومصالحه ؛ فليس عجيباً أن يسخر معرفته لخدمة هذه الأهواء والآراء والمصالح

لكن مما يؤسف له أن الكشوف العلمية التى يزيد عددها منذ قرن من الزمان زيادة رائعة ، إنما بزغت فى مجتمعات لم تؤت من الحكمة إلا حظاً يسيراً ، فنتج عن ذلك أنها لم تسخر تلك الكشوف دائماً فى غايات سليمة كريمة ، وإنما استخدمتها فى الخير حيناً ، وجعلتها فى خدمة الشر والعدوان أحياناً . ولكن ليس الذنب فى ذلك ذنب العلم ولا ذنب الكشوف العلمية ، وإنما هو ذنب المجتمع الإنسانى الذى يحمل فى نفسه جراثيم السوء . قد يستكشف البيولوجى أثر مادة ما فى بدن الإنسان ، فيستخدم الطبيب ذلك فى العلاج ، ويستخدمه المجرم فى القتل . ويستكشف عالم الطبيعة القوانين التى تقوم عليها السينما والراديو ، فيستخدمها بعض الناس لإذاعة الحق والخير والجمال ، ويستخدمها بعضهم لنشر الأكاذيب والآثام والحماقات . وقد استكشف العلماء وسيلة لتحطيم الذرة وحبس طاقتها ، فاستخدمها بعضهم لصنع القنبلة الذرية ، وقد يستخدمها آخرون غداً لرفع مستوى الحياة الإنسانية .

وإذن فليس من الإنصاف أن يُرمَى العلم بما رُمِى به من اتهام ، وأن يحمَّل عبء ما اقترف باسمه من آثام ، بل الأقرب إلى الانصاف أن تلقى جميع هذه التبعات على الإنسان .

الحق أن العلم الصحيح يحمل فى نفسه مثلا أعلى ومذهباً أخلاقيًّا رفيعاً ، لو اهتدينا إليهما ، واستوحيناهما فى حياتنا ، لأوتينا نبلا وسعادة .

يتضمن العلم ثلاثة معان أخلاقية جليلة هى قانونه وحياته : الأول هو أن إقدام الفكر وجرأته الفاتحة هما صميم الكرامة الإنسانية . ذلك لأن العالِم الصحيح باحث مبرأ من الأغراض كما قلنا : لا يعنيه ، حين يواجه مشكلة ما ، أن يعرف هل يكون لحلها نتائج عملية أو لا يكون ، ولا يبالى إلا بأن يستعيض عن جهلٍ بعلم . ولعل أجل وأروع الكشوف العلمية ما تم منها فى علم الفلك . فهذه الكشوف نماذج للانتصار العلمى ؛ لأنها غيرت فكرتنا عن الكون ، ولأنها جعلت الغلبة للعقل فى مجال كان يبدو بعيداً عن متناول العقول . ومع ذلك فلم

ينتج عن هذه الكشوف الفلكية تطبيقات عملية من شأنها أن تبدل أحوال معاشنا .

ومتى كانت الكرامة الإنسانية فى ذلك الجهد الموصول للمعرفة فإنّ مهمتنا الأولى أن نعمل بحيث يكون للناس جميعاً نصيب فى هذه الكرامة ؛ فنيسِّر لهم أن يتعلموا فى كل سن ، وفى كل طبقة ، وفى أى جنس ، ونهيئ لهم السبيل إلى أن يتذوقوا الأمور الروحية واللذائذ العقلية ، وأن يقدروا الحقائق التى قام عليها الدليل .

والمعنى الثانى الذى ينطوى عليه البحث العلمى هو العمل على جمع الكلمة والائتلاف من طريق ذيوع الحقائق العلمية ، وقبول الناس إياها لا باعتبارها حقائق خاصة بطائفة من الطوائف ، أو بوطن من الأوطان ، أو بجنس من الأجناس ، بل باعتبارها نورا يهدى جميع أفراد الإنسان فى هذه الدنيا . ذلك أن للعلم ميزة انفرد بها ، وهى أنه واحد فى كل مكان وعند جميع الناس ؛ فمجموع ٢ و ٣ = ٥ سواء كنا فى القاهرة أو فى لندن ؛ ولا يخطر ببال عاقل أن ينازع فى هذه الحقيقة الرياضية . وكذلك فى العلماء إسرائيليون ، وفيهم مسيحيون ، وفيهم مسلمون . وفى العلماء عرب وأمريكان وروسيون . ولكن لا يستطيع أحد أن يزعم أن تكون هناك هندسة إسرائيلية مخالفة للهندسة المسيحية أو الاسلامية ، ولا علم طبيعة عربى متميز من علم الطبيعة الامريكانى أو الروسى ... ذلك أن الحقائق العلمية يمكن أن يقوم عليها البرهان . والبرهان القائم على العقل والتجربة هو الذى يخلق الوحدة والاتفاق بين الناس ، ويدعو إلى الائتلاف عفواً ومن غير إكراه .

مما يؤسف له أن الناس لم يتفقوا إلى الآن إلاّ على قليل من الحقائق العلمية المتصلة بالمادة وبالحياة . ومن نكد الحال أنهم فيما عدا ذلك يجدون أنفسهم مضطرين إلى البت فى مشكلات لم يمسها العلم إلاّ مسًّا رقيقاً . ومن أجل هذا أصبحوا متفقين فى بعض الأمور ، ومختلفين أشد الاختلاف فى أمور أخرى . ولكن أقل ما يقال إن المثل الأعلى الذى يترسمه العلم يدلنا على الطريق الذى ينبغى أن نسلكه لتلطيف حدة هذا الاختلاف ، وهو أن نزيد عدد الحقائق اليقينية ، وأن نعمل على إذاعتها فى الناس ، وأن نطلب إلى العقل فى جميع المناظرات مبدأ الوئام والاتفاق .

والمعنى الثالث الذى يتضمنه العلم هو احترام حرية الفكر ، والاعتقاد بأن

الحرية هى الشرط الضرورى لكل تقدم . وطرافة العلم أنه بقى دائما بعيدا عن روح الضغينة والاضطهاد ، وأنه جعل الحرية قانونه ، واعترف بها للجميع من غير استثناء . كثيراً ما نرى من أصحاب العقائد الدينية أو المذاهب السياسية من لا يترددون فى استعمال العنف فى الدعوة إلى آرائهم أو النيل من خصومهم . كم من نفوس أزهقت من أجل « الصليب » أو من أجل «الهلال» ! ولكن هل أزهقت نفس واحدة من أجل نظرية فيثاغورس أو قانون الأجسام الطافية؟ وكم من دماء أهدرت من أجل « الفاشية » أو من أجل « الديمقراطية » ولكن لم تهدر قطرة دم واحدة من أجل قانون الجاذبية أو قانون النسبية .

ذلك أن بين العلم والحرية وحدة لا تنفصم عراها . فبينما نرى العقائد والمذاهب تعتمد فى الغالب على العنف والاكراه ، نرى العلم يظل دائماً نقى اليدين من الدم المراق ، ونراه مستغنياً عن تأييد السلطات أو مناصرة الأغلبيات ؛ لأن له من فضائله الخاصة ما يكفل له الغلبة والذيوع ولو بعد حين . وإذن فكرامة الفكر والوئام والحرية هى المبادئ الثلاثة التى تقوم عليها أخلاقيات العلم . ولو أنصتت الإنسانية لهذه المبادئ لذهبت الحروب ، والمظالم الاجتماعية ، واستغلال الإنسان للإنسان ، ولقضى على عهد البؤس والجهل ، ولانتهت جميع ضروب الطغيان التى تزهق حياة الأفراد وحياة الشعوب .

ومن أجل هذا وجب أن نتساءل : أنمضى فى استخدام العلم فى محاربة العلم ؟ أم نصت إلى ما يقدمه لنا العلم من هداية أخلاقية ؟ ويجب علينا أن نختار الآن ؛ فقد اهترت أرجاء العالم ولطخ بالدم أديمه فى زلزال هو أشد هولا من كل ما عرف من قبل . وما كادت الإنسانية المكروبة تتنفس من هذه الغمة حتى أخذت تتلمس السبيل إلى درء كارثة جديدة ، وهى عالمة أنه لا بد لتثبيت السلام الدائم ، وتنظيم التعاون بين الأمم ، من الاهتداء إلى مبادئ أخلاقية يدين لها الناس جميعاً بالقبول . والعلم يكفل للناس هذه المبادئ التى توجههم إلى أرفع ضروب النشاط ، وتدعوهم إلى التسامح ، وتجعلهم إخواناً متحابين

عثمان أمين